حين انتهى «ماني» من التهندم في ذلك اليوم ومَثَل أمام «أصحاب الملابس البيضاء» المجتمعين تحت قبّة «البيت المقدَّس» الواطئة، كانت نظرته مستقيمة وفي يده عصاً وقد تأبّط كتاباً. وكان يُستشَفّ الاطمئنان في خطوه، غير أن زغب لحيته القليل كان لا يزال يكشف عن بعض الهشاشة.

كان آخر من دخل. وعلى الرغم من أن الصلاة كانت قد بدأت فقد أحدث ظهوره بعض الهمهمات. ولقد استدارت الأكتاف البيضاء، وإنْ حدث أنْ ظل أحد «الإخوة» خاشعاً فإنّ جاره كان يهزّه ليُريه، بذقنه أو بمِرفقه، المتجرِّئ الذي لا يُسمَّى. وحده الكاهن «سيتايي» تظاهر بمتابعة قدّاسه. إلا أن الترتيلة الأخيرة العارمة في العادة استُبعدت بنغمينْ متسرِّعينْ ثم خرج المريدون القهقرى مطأطئي الرؤوس متجنِّبين المرور بالجناح المركزيّ الذي كان ينتصب في وسطه «ماني» مُستفِزّاً بالألوان. وقد لجأوا في انسحابهم إلى التمسُّح بجدران الأروقة الجانبية وكأنهم أسرى بلا مجاذيف في سفينة، أو صيادون بلا شِباك.

وإذ أصبحوا خارجاً فقد تجمّعوا قرب الباب وأغرقوا في كيل اللعنات للمستفِزّ واستنكار زيّه وجنونه المباغت وتجديفه المجرم. وعندما خاطر «ماني» في نهاية الأمر بالخروج بعد ساعة تعالتْ جَلَبة في صفوفهم. وفيما كانت بعض الأيدي تمتدّ للقبض عليه، للأخذ بثيابه المبرقشة، لتغريمه ثمن استفزازه، تدخّل «پاتيغ» وكأنّه تذكّر فجأة أنه أبٌ وأن عليه واجبات، وجرّ ولده بحزم من ذراعه وقاده إلى حافّة الترعة حيث لا يستطيع «الإخوة» التربّص بهما.

وأسلس «ماني» قِياده من غير أن يفقد شيئاً من دَعَتِه ولا من روعته، وكان «پاتيغ» على الأخص هو الذي يبدو قلقاً حائراً على الرّغم من تمكّن المرء إذا ما تفرّس في سحنته عن كَثَب من اكتشاف سعادة مكتومة: السعادة بأن يجد نفسه للمرّة الأولى في حياته وهو يحمي ابنه، وهو ينقذه من المهالك. والحقّ أنه، بعد سنوات من البعاد واللامبالاة الجليّة، كانت قد نشأت بينهما صداقة خفيّة غداة رحيل «مالكوس». بيد أن الفرصة لم تسنح قطّ لِـ «پاتيغ» لمثل هذه الألفة، لأنْ